

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناسخ

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٠ م

Published by Alami Library

Beirut - Lebanon P.O.Box 7120

Tel fax:833447



مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة

ملك الأعلمي - من باب ٧١٢٠

هاتف: ٨٣٣٤٤٧ - فاكس: ٨٣٣٤٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المؤلف في سطور:

هو زكريا بن محمد بن محمود، من سلالة أنس بن مالك الأنصاري النجاري: مؤرخ، جغرافي، من القضاة، ولد عام ٥٠٦ هـ بقزوين ورحل إلى الشام والعراق، فولي قضاء واسط والحلة في أيام المستعصم العباسي. وصنف كتباً، منها:

١ - «آثار البلاد وأخبار العباد» مطبوع في مجلدين.

٢ - و «خطط مصر» مخطوط.

٣ - و «عجائب المخلوقات» ترجم إلى الفارسية والألمانية والتركية. وهو كتابنا الذي بين يديك.

توفي عام ٦٨٢ هـ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. العظمة لك والكبرياء لجلالك، اللّهمّ يا قائم الذات، ويا مفيض الخيرات، واجب الوجود وواهب العقول، وفاطر الأرض والسّموات، مبدي الحركة والزمان ومبدع الحيّز والمكان، فاعل الأرواح والأشباح، وجاعل النور والظلمات، محرك الأفلاك ومزينها بالثواب والسيارات، ومقرر الأرض وممهدها لأنواع الحيوان وأصناف المعادن والنبات، دام حمدك وجلّ ثناؤك وتعالى ذكرك، وتقدّست أسماؤك، لا إله إلا أنت، وسعت رحمتك وكثرت آلاؤك ونعمائوك، أفض علينا أنوار معرفتك وطهر قلوبنا عن كدورات معصيتك، وأمطر علينا سحائب فضلك ومرحمتك، واضرب علينا سرادقات عفوك ومغفرتك، وأدخلنا في حفظ عنايتك ومكرمتك، وصلّ على ذوي الأنفس الطاهرات والمعجزات الباهرات، خصوصاً على سيّد المرسلين وإمام المتّقين، وقائد الغر المحجلين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، الذي اخترته للنبوّة، وآدم بين الماء والطين، وأرسلته رحمة للعالمين، وأيدته بنصرك وبالمؤمنين، وختمت به الأنبياء والمرسلين، وعلى إخوانه من النبيّين، والصالحين وآله وصحبه أجمعين.

يقول العبد الأصغر زكريا بن محمد بن محمود القزويني تولاه الله بفضله، وهو من أولاد بعض الفقهاء الذين كانوا موطنين بمدينة قزوين، ويتّهي نسبة إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ: لما حكّم الله تعالى ببعث الدار والوطن، ومفارقة الأهل والسكن، أقبلت على مطالعة الكتب على رأي من قال:

وخير جليس في الزمان كتابي

وكنت مستغرقاً بالنظر في عجائب صنع الله تعالى في مصنوعاته، وغرائب إبداعه في مبدعاته كما أرشد الله سبحانه إليه حيث قال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾، وليس المراد من النظر تقليب الحدقة ونحوها، فإن البهائم تشارك الإنسان فيه، ومن لم ير من السماء إلا زرقعتها ومن الأرض إلا غبرتها فهو مشارك للبهائم في ذلك، وأدنى حالاً منه، وأشدّ غفلة، كما قال تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين﴾، إلى أن قال: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾، والمراد من هذا النظر التفكر في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصريفها ليظهر له حقائقها، فإنها سبب اللذات الدنيوية والسعادات الآخروية، ولهذا قال ﷺ: «أرني الأشياء كما هي»، وكلما أمعن النظر فيها ازداد من الله تعالى هداية و يقيناً ونوراً وتحقيقاً، ولهذا قال ﷺ: «تفكروا في خلق الله»، والفكر في المعقولات لا يتأتى إلا لمن له خبر بالعلوم والرياضات، بعد تحسين الأخلاق ونهذيب النفس، فعند ذلك يفتح له عين البصيرة ويرى في كل شيء من العجب ما يعجز عن إدراك بعضها، فلو ذكر طرفاً منها لغيره لأنكره، والله در المقاتل:

إني سمعت عجبياً كنت أحسبه طيفاً من النوم أو هجرأ من السمير
 ما ألفت به ألفت صحته وقد رأيت ألوفاً مثل ذى العبير

ومن هذا القبيل ما أخبر الله تعالى في كتابه عما جرى بين الخضر وموسى عليهما الصلاة والسلام، وما ذكر أيضاً أن موسى اجتاز بعين ماء في سفح جبل فتوضأ ثم ارتقى الجبل ليصلي إذ أقبل فارس وشرب من ماء العين، وترك عندها كيساً فيه دراهم، فجاء بعده راعي غنم فرأى الكيس فأخذه ومضى، ثم جاء بعده شيخ عليه أثر البؤس والسكينة، على ظهره حزمة حطب، فحط حزمته هناك، واستلقى ليستريح، فما كان إلا قليل حتى عاد الفارس يطلب كيسه، فلما لم يجده أقبل على الشيخ يطالبه به، فلم يزل يضربه حتى قتله، فقال موسى: يا رب، كيف العدل في هذه الأمور، فأوحى الله عز وجل إليه أن الشيخ كان قد قتل أبا الفارس، وكان على أبي الفارس دين لأبي الراعي مقدار ما في الكيس، فجرى بينهما القصاص، وقضى الدين، وأنا حكيم عادل.

ولقد حصل لي بطريق السمع والبصر والفكر والنظر حكم عجيبة، وخواص غريبة، فأحببت أن أقيدها لتثبت، وكرهت الذهول عنها مخافة أن تفلت، وقد كثرت على عواطف المولى صاحب الصدر الكبير المعادل المؤيد المظفر شمس الدولة ظهير الملة علاء الدين عماد الإسلام نظام الملك غياث الأمة عطاء الملك بن محمد بن محمد، ضاعف الله جلاله وأدام في العز والعلاء إقباله، فإنه مع شريف منزلته وعلو مرتبته مشهور بالكرم والإحسان مذكور لوفور الفضل عن أهل الزمان وقد خصه الله تعالى بمكارم الأخلاق وفضائل الحسب والمجد الموروث والمجد المكتسب، فخدمت بهذا الكتاب مجلسه الرفيع أدام الله رفعتة وكبت أعداءه وحسدته، فإنه منبع الخيرات ومعدن المسرات، شكراً لأياديه السابقة وقضاء لحقوقه اللاحقة ورجاء أن يتخذ اسمي بتخليد ذكره الشريف، ويتأبد وسمي بتأييد عزه المتيف، والله ولي التوفيق، وعلى ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

فصل

وعلى الناظر في كتابي هذا أن يعنى في جمع ما كان مبدداً أو تليق ما كان مشتتاً، وقد ذكرت فيه أسباباً تأبأها طباع الغبي الغافل، ولا ينكرها نفس الذكي العاقل، فإنها وإن كانت بعيدة عن العادات المعهودة والمشاهدات المألوفة لكن لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وجبلة المخلوق وجميع ما فيه إما عجائب صنع الباري تعالى؛ وذلك إما محسوس أو معقول، لا ميل فيهما ولا خلل، وإما حكاية طريقة منسوبة إلى روايتها لا ناقة لي فيها ولا جمل، وإما خواص غريبة، وذلك مما لا يفي العمر بتجربتها ولا معنى لترك كلها لأجل الميل في بعضها، فإن أحببت أن تكون منها على ثقة، فشمّر لتجربتها، وإياك أن تغتر أو تلم أو تمل إذا لم تصب في مرة أو مرتين، فإن ذلك قد يكون لفقد شرط أو حدوث مانع، وحسبك ما ترى من حال المغناطيس وجذبه الحديد، فإنه إذا أصابه رائحة الثوم بطلت تلك الخاصية، فإذا غسلته بالخل عاد إليه، فإذا رأيت مغناطيساً لا يجذب الحديد فلا تنكر خاصيته، فاصرف عنايتك إلى البحث عن أحواله حتى يتضح لك أمره، على أنني أشهد الله تعالى أن شيتاً منها ما افتريته بل كتبت الكل كما افتريته، فإن نظرت إليها بعين الرضا فإنها عن كل عيب قليلة، وإن نظرت بعين السخط فالمساويء كثيرة، وعين الكريم عن

المعائب عمياء، وأذنه عن المساوىء صماء، والله در القائل:

فقلت لهم لا تنسوا الفضل بينكم فليس ترى عين الكريم سوى الحسن

وسمّيته «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، ولا بد من ذكر مقدمات أربع في شرح هذه الألفاظ، ليتبين منها مقصود الكتاب، والله الموفق للصواب.

المقدمة الأولى

في شرح العجب. قالوا: العجب: الحيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه، مثاله أن الإنسان إذا رأى خلية النحل ولم يكن شاهده قبل لكثرت حيرته، لعدم معرفة فاعله، فلو علم أنه من عمل النحل لتحير أيضاً من حيث أن ذلك الحيوان الضعيف كيف أحدث هذه المسدسات المتساوية الأضلاع الذي عجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجات والمسطرة، ومن أين لها هذا الشمع الذي اتخذت منه بيوتها المتساوية التي لا تخالف بعضها بعضاً كأنها أفرغت في قالب واحد، ومن أين لها هذا العسل، الذي أودعته فيها ذخيرة للشتاء، وكيف عرفت أن الشتاء يأتيها وأنها تفقد فيه الغذاء، وكيف اهتدت إلى تغطية خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطاً بالعسل من جميع جوانبه، فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه الغار، ويبقى كالبرنية المنضمة الرأس، فهذا معنى العجب، وكل ما في العالم بهذه المثابة.

إلا أن الإنسان يدركه في زمن صباه عند فقد التجربة ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً وهو مستغرق الهم في قضاء حوائجه وتحصيل شهواته، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته، فسقط عن نظره بطول الأنس بها، فإذا رأى بغتة حيواناً غريباً أو فعلاً خارقاً للعادات انطلق لسانه بالتسبيح فقال: سبحان الله، وهو يرى طول عمره أشياء تتحير فيها عقول العقلاء، وتدهش فيها نفوس الأذكىاء، فمن أراد صحة أو صدق هذا القول، فلينظر بعين البصيرة إلى هذه الأجسام الرفيعة وسعتها وصلابتها وحفظها من التغير والفساد، إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فإن الأرض والهواء والبحار بالإضافة إليها كحلقة ملقاة في فلاة، قال الله تعالى: ﴿والسمااء بيناهما بأيدٍ وإنا لموسعون﴾.

ثم إلى دورانها مختلفاً، فإن بعضها يدور بالنسبة إلينا رحوية، وبعضها
حمائية، وبعضها دولاوية، وبعضها يدور سريعاً، وبعضها يدور ببطئاً. ثم إلى دوام
حركاتها من غير فتور وإلى إمساكها من غير عمد تعمد بها أو علاقة تدلى بها.

ثم لينظر إلى ركبها وكثرتها واختلاف ألوانها، فإن بعضها يميل إلى الحمرة،
وبعضها إلى البياض، وبعضها إلى لون الرصاص.

ثم إلى مسير الشمس وفلكها مدة سنة، وطلوعها وغروبها كل يوم لاختلاف
الليل والنهار ومعرفة الأوقات، وتمييز وقت المعاش عن وقت الاستراحة.

ثم إلى إمالتها عن وسط السماء حتى وقع الصيف والشتاء، والربيع والخريف.
وقد اتفق الباحثون على أنها مثل كرة الأرض مائة مرة وتيفاً وستين مرة، وفي لحظة
تسير أكثر من قطر كرة الأرض، وقد عرض ذلك جبريل عليه السلام حيث قال
للنبي ﷺ: من وقت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام.

ثم لينظر إلى جرم القمر، وكيفية اكتسابه النور من الشمس لينوب عنها بالليل.

ثم إلى امتلاكه وانمحاقه، ثم إلى كسوف الشمس وخسوف القمر، ومن
العجائب السواد الذي في جرم القمر، فإنه لم يسمع فيه قول شاف إلى زماننا هذا،
وكذلك في المجرة، وهي البياض الذي يقال له شرج السماء، وهو على ذلك يدور
بالنسبة إلينا رحوية.

وعجائب السموات لا نستطيع إحصاء عشر عشرها، لكن القدر الذي جرى في
جرم القمر ذكرناه تبصرة لكل عبد منيب.

ثم لينظر إلى ما بين السماء والأرض من انقضاض الشهب، والغيوم، والرعود،
والبروق، والصواعق، والأمطار، والثلوج، والرياح المختلفة المهاب. وليتأمل
السحاب الكثيف المظلم كيف اجتمع في جو صافٍ لا كدورة فيه، وكيف حمل الماء
وتسخر الرياح، فإنها تتلاعب به، وتسوقه إلى المواضع التي أرادها الله تعالى، فترش
وجه الأرض، وترسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ليصيب وجه الأرض
برفق، فلو صبه صباً لأفسد الزرع بخدشه وجه الأرض، ويرسلها مقداراً كافياً لا كثيراً
زائداً على الحاجة، فيعفن النبات ولا قليلاً ناقصاً عن الحاجة، فلا يتم به النمو كما

قال تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر﴾ .

ثم إلى اختلاف الرياح، فإنّ منها ما يسوق السحب، ومنها ما ينشرها، ومنها ما يجمعها، ومنها ما يعصرها، ومنها ما يلقح الأشجار، ومنها ما يربي الزرع والثمار، ومنها ما يجفّفها.

ثم لينظر إلى الأرض وجعلها قراراً لتكون فراشاً ومهاداً، ثم إلى سعة أكنافها، وبعد أقطارها حتى عجز آدميون عن بلوغ جميع جوانبها، ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾، ثم إلى جعل ظهرها محلاً للأحياء وبطنها مقراً للأموات، فتراها وهي ميتة، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ وأظهرت أجناس المعادن وأنبئت أنواع النبات، وأخرجت أصناف الحيوان، ثم إلى إحكام أطرافها بالجبال الشامخات كأوتاد لها يمنعونها من أن تميد، ثم إلى إيداع أوшал المياه في خزانات ليخرج منها قليلاً قليلاً، فتنفجر منها العيون، وتجري منها الأنهار دائماً. ثم لينظر إلى البحار العميقة التي هي خلجان من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى أنّ جميع المكشوف من البوادي والجبال، بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مستورة بالماء.

ثم إلى ما فيها من الحيوان والجواهر وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله، وأضعافه، وفيها أجناس لا يعهد لها نظير في البر.

ثم لينظر إلى خلق اللؤلؤ في صدفة تحت الماء، ثم إلى إنبات المرجان في صميم الصخر تحت الماء، وهو نبات على هيئة شجرة ينبت من الحجر. ثم إلى ما عداه من العنبر، وإلى أصناف النفائس التي يقذفها البحر، وتُستخرج منه. ثم إلى السفن كيف سيرت في البحار وسرعة جريها، وإلى إيجاد الأنهار، ومعرفة النواتي موارد الرياح ومهابها وسواقيها.

وعجائب البحار كثيرة لا مطمع في إحصائها، وقد قيل: حدّث عن البحر ولا حرج، وفيما ذكرناه كفاية.

ثم لينظر إلى أنواع المعادن المودعة تحت الجبال فمنها ما ينطبع كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص، ومنها ما لا ينطبع كالفيروز والياقوت والزرجد، ثم إلى كيفية استخراجها وتنقيتها واتخاذ الحلي والآلات والأواني منها،

ثم إلى معادن الأرض كالنفط والقيز والكبريت وغيرها، وأقلها الملح، فلو خلقت منه بلد لتسارع الفساد إلى أهلها.

ثم لينظر إلى أنواع النبات وأصناف فواكهها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والأراييج تسقى بماء واحد، وتفضل بعضها على بعض في الأكل مع اتحاد الأرض والهواء والماء، فيخرج من نواة نخلة مطوقة بعنقيد الرطب وبرة حبة سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة. ثم لينظر إلى أرض البوادي وتشابه أجزائها، فإنها إذا نزل القطر عليها اهتزت وريت وأنبتت من كل زوج بهيج.

ثم إلى كثرتها واختلاف أصنافها متشابهة وغير متشابهة، ثم إلى كثرة أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها واختلاف طبائعها، وكثرة منافعها، فلم يثبت من الأرض ورقة إلا وفيها منفعة أو منافع يقف فهم البشر دون إدراكها.

ثم لينظر إلى أصناف الحيوان وانقسامها إلى ما يطير ويقوم ويمشي، وانقسام العاشي إلى ما يمشي على بطنه، وإلى ما يمشي على رجلين، وإلى ما يمشي على أربع، وإلى أشكالها وألوانها وصورها وأخلاقها وأفعالها ليرى عجائب تدهش منها العقول بل في البقّة أو النمل أو العنكبوت أو النحل، فإنها من ضحاف الحيوانات ليرى ما يتحير منه من بنائها البيت وجمعها الغذاء وأذخارها القوت لوقت الشتاء وحلقها في هندستها ونصبها الشبكة للصيد، ولا من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى، وإنما سقط التعجب هنا للأنس وكثرة المشاهدة.

وعجائب السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾، بحار لا يدري سواحلها ولا يعرف أوائلها ولا أواخرها، والله الموفق للصواب.

المقدمة الثانية

في تقسيم المخلوقات. المخلوق كل ما هو غير الله سبحانه وتعالى وهو إما أن يكون قائماً بالذات أو قائماً بالغير، والقائم بالذات إما أن يكون متحيزاً أو لم يكن، فإن كان متحيزاً فهو الجسم، وإن لم يكن فهو الجوهر الروحاني، وهو إما أن يكون متعلقاً بالأجسام تعلق التدبير، وهو النفس، أو لا يكون، وهو إما أن يكون سليماً عن

الشهوة والغضب وهو الملك أو لا يكون، وهو الجن. والقائم بالغير، إن كان قائماً بالمتحيزات فهو الأعراض الجسمانية، وإن كان قائماً بالمفارقات فهو الأعراض الروحانية كالعلم والقدرة، والأعراض الجسمانية إما أن يلزم من صدقها حصول صدق النسبة، أو صدق قبول النسبة أو لا هذا ولا ذلك، فإن كان الأول، فالنسبة إما حصول في المكان وهو الأين أو في الزمان وهو الشيء أو نسبة متكررة وهو الإضافة أو تأثير الشيء في الشيء وهو الفعل، أو تأثر الشيء عن الشيء وهو الانفعال وكون الشيء محيطاً بالشيء يجب أن ينتقل المحيط بانتقال المحاط به وهو الملك، أو هيئة حاصلة بمجموع الجسم بسبب حصول النسب بين أجزائه بعضها إلى بعض، وبين أجزائه والأمور الخارجية، وهو الوضع. وإن كان يلزم من حصولها صدق قبول النسبة، فهو إما أن يكون بحيث لا يحصل بين أجزائه حدود مشتركة وهو العدد، أو يحصل وهو المقدار، وإن كان لا يلزم من حصولها صدق قبول النسبة، فإما أن يكون مشروطاً بالحياة أو لم يكن، فإن كان فإما أن يتوقف على الشهوة والنفرة، وهو التحريك أو لا يتوقف، وهو الإدراك، ثم الإدراك إما إدراك الكليات وهو العلوم والظنون والجهالات أو إدراك الجزئيات، وهو الحواس الخمس، وإن لم يكن مشروطاً بالحياة فهو الأعراض المحسوسة بالحواس الخمس، أما المحسوسات بالقوة الباصرة فكالأضواء والألوان وأما المحسوسات بالقوة الشاقة فكالطيب والنتن، وأما المحسوسات بالقوة السامعة، فالأصوات والحروف، وأما المحسوسات بالقوة اللامسة فكالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والثقل والخفة والصلابة واللين والخشونة والنعومة. فهذه جملة أقسام الممكنات، وسيأتي الكلام في كل قسم منها إن شاء الله تعالى.

فصل

ذكر أهل السير أنه وجد في السفر الأول من التوراة أن الله تعالى خلق جوهرأ، ثم نظر إليه نظر الهيبة فذاب الجوهر وصعد منه دخان ورسب منه رسوب، فخلق سبحانه من الدخان السموات، ومن الرسوب الأرض.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، وأحكم جلت قدرته خلق المجموع في ستة أيام. قال بعض العلماء: إن اليوم في

اللغة الكون الحادث والأيام ههنا مراتب مصنوعاته لأن قبل الزمان لا يمكن تجدد الزمان، فمن الأيام الستة يوم لمادة الأرض، ويوم لصورتها، ويوم لمادة السماء، ويوم لصورتها، ويوم لمكملاتها من الجبال، والكواكب، والنفوس، وغيرها. وقال أيضاً كل ما فوق الأرض فهو سماء في طريق اللغة يقولون: ما علاك فهو سماؤك، وما دون فلك القمر فهو بالنسبة إلى الأفلاك أرض، قال تعالى: ﴿خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ يعني سبعاً، فالأول كرة النار، والثانية كرة الهواء، والثالثة كرة الماء، والرابعة كرة الأرض، وثلاث طبقات ممزجات بين الأربعة الأولى من النار والهواء، والثانية من الهواء والماء، والثالثة من الماء والأرض، ثم دبر بعنايته بعد الجماد أمر المعادن الداخلة في الجماد ثم النبات ثم الحيوان، فهذا هو القول الكلبي في المخلوقات، وسيأتي القول في جزئياتها في مقالتي إن شاء الله تعالى. والله الموفق للصواب.

المقدمة الثالثة

في معنى الغريب. الغريب كل أمر عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة، وذلك إما من تأثير نفوس قوية، وتأثير أمور فلكية أو أجرام عنصرية، كل ذلك بقدرة الله تعالى وإرادته.

فمن ذلك معجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كانشقاق القمر، وانفلاق البحر، وانقلاب العصا ثعباناً، وكون النار برداً وسلاماً، وخروج الناقة من الصخرة الصماء، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى. ومنها كرامات الأولياء الأبرار، فإن تأثير نفوسهم تتعدى إلى غير أبدانهم حتى يحدث عنها انفعالات غريبة في العالم فيشفى المريض باستشفائهم وتسقى الأرض باستسقيتهم. وربما يحدث الخسف والزلزلة والظوفان والصواعق بدعواتهم، ويصرف الوباء والموتان باستدعائهم، وتبدل لهم نفرة الطيور بالهدو والوقوع وصبولة السباع، وشذتها باللين والخضوع.

ومنها أخبار الكهنة والكهانة اندرست بمبعث النبي ﷺ، وكانوا يأتون الجاهلية بأمور غريبة زعموا أنها كانت بواسطة اختلاط نفوسهم بنفوس الجن. ومنها الإصابة

بالعين، فإنّ العائن إذا تعجّب من شيء كان تعجبه مهلكاً للمتعجب منه بخاصية لنفسه لا يوقف عليها. ومنها اختصاص بعض النفوس من الفطرة بأمر غريب لا يوجد مثله لغيرها، كما ذكر أنّ في الهند قوماً إذا اهتموا بشيء اعتزلوا عن الناس وصرفوا همّهم إلى ذلك الشيء، فيقع على وفق اهتمامهم. ومن هذا القبيل ما حكى أنّ السلطان محموداً غزا بلاد الهند، وكان فيها مدينة كل من قصدها مرض، فسأل عن ذلك، فقالوا: إنّ عندهم جمعاً من الهند يصرفون همّهم على ذلك، فيقع المرض على وفق اهتمامهم، فأشار إليه بعض أصحابه بدق الطبول ونفخ البوقات الكثيرة ليشوّش همّهم، ففعلوا ذلك، فزال المرض، واستخلصوا المدينة.

ومن هذا القبيل ما ذكر أنّ رجلاً فيلسوفاً في زمن خوارزم محمد بن تكش جاء من بلاد الهند إلى خراسان فأسلم، وكان يقال له داناى هند يستخرج طالع كل إنسان أراد حتى جربوه بالطوالع الرصدية، فلم يخط شيئاً، وزعم أنّ ذلك له بواسطة حساب يعرفه، فرفع أمره إلى السلطان، فقال له: هل تقدر على استخراج غير الطوالع؟ قال: نعم، قال: أخبرني عما رأيت البارحة في نومي، فرجع إلى نفسه وحسب ثم قال: رأى السلطان أنّه في سفينة، ويده سيف، فقال السلطان: لقد أصاب، لكنّ لا نفع بهذا القدر لأنّي على طرف جيحون كثيراً ما أركب السفينة، والسيف لا يفارقني، فربّما قال اتفاقاً، فامتحنه مرّة أخرى فأصاب، فقربّه من نفسه، وكان يستعين به في أموره.

ومن ذلك أمور سماوية كظهور الكواكب ذوات الأذنان، والتمائل والشانين، وانقراض شهب يستضيء الجو منها. ومنها سقوط جسم من الجو ثقيل كما ذكر الشيخ الرئيس أنّه سقط في زمانه بأرض جوزجانان جسم كقطعة حديد قدر خمسين مثلاً مثل حبات الجاورش المنضمة، فأرادوا كسرها، فما كان يعمل فيها الحديد البتّة.

ومنها سقوط ثلج أو يزد في غير أوانه كما حكى عن بعض شيوخ قزوين أنّه أتاهم في زمن المشمش برد عظيم كل واحدة على قدر الجوزة، فأهلك كثيراً من الحيوان والنبات، والمشمش لا يدرك بقزوين إلا في الصيف. ومنها سقوط أحجار من الحديد والنحاس في وسط الصواعق، وذلك يوجد ببلاد الترك، وربّما يوجد بأرض جيلان أيضاً. وحكى أبو الحسن علي بن الأثير الجزري في «تاريخه» أنّه نشأت بإفريقية في سنة إحدى عشرة وأربعمائة سحابة شديدة الرعد والبرق، فأمرت حجارة

كثيرة وأهلكت كل من أصابته . وأغرب من هذا ما حكاه الجاحظ أنه نشأت سحابة بأيدج وهي مدينة بين أصبهان وجوزستان سحابة طحيا تكاد تمس رؤوس الناس، وسمعوا منها كهدير الفحل، ثم إنها دفعت بأشد مطر ثم استسلموا للغرق، ثم دفعت بالضفادع والشببيط العظام السمان، والشبوط نوع من السمك، فأكلوا وملحوا وادّخروا كثيراً.

ومن ذلك أمور أرضية مثل صيرورة اليبس بحرأ كأرض يونان، فإنها كانت بلاداً معمورة والآن استولى الماء عليها، وصيرورة البحر يبساً كأرض ساوة، فإنها كانت بحرأ، والآن لا يرى فيها أثر البحر.

ومنها ما زعموا أنه يصعد من الأرض بخار لا يصيب شيئاً من الحيوان والنبات إلا جعله حجراً صلباً، وأثار ذلك ظاهرة بانضاً من أرض مصر، ومثله شم بأرض قزوين، ومنها وقوع خسف بناحية من الأرض، وخروج ماء أسود منها، وقد شوهد ذلك في كثير من النواحي، منها مدينة عنجرة بأرض الروم، وقرية دركزين من أعمال همدان، ومنها زلزلة تبقى شهراً أو أكثر ببعض النواحي، وقد شوهد ذلك بأرض نيسابور، والري، وحدثني أبو القاسم الرافعي قدس الله روحه أنه شاهد في هذه الزلزلة سقفاً قد انشق حتى رأى الكواكب من جانبه، ثم عاد إلى حاله ولم يظهر عليه أثر الشق.

ومنها ظهور معدن ببعض الأصقاع لم يعرف قبل ذلك من الزمان كصهور معدن الذهب عند الإسماعيلية.

ومنها ظهور نبت بأرض لا عهد للناس بوجوده هناك كظهور الترنجيبين بأرض ساوة. ومنها تولد حيوان غريب الشكل لم ير مثله، كما روي عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه رأى باليمن إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن امرأة، ومن وسطه إلى فوق بدنان مفترقان بأربع أياد ورأسين ووجهين، وهما يأكلان ويشربان ويختصمان ويصطلحان، وذكر أنّ امرأة بكلوسامان من قرى بلخ ولدت شخصاً له نصف بدن ونصف رأس، ويد واحدة ورجل واحدة على صورة النسناس الذي يوجد في غياض الشجر باليمن، ثم حملت مرة أخرى فولدت بدنأ له رأسان، وزعم الحكماء أنهم وجدوا ثلاثة معان من الأمور غريبة، وقد وضعوا لكل معنى اسماً، وأحد هذه المعاني: الآثار النفسانية والانفعالات التابعة للتصورات من غير واسطة أمر طبيعي،

فاستعمال تلك التصورات في الخير معجزة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكرامة من الأولياء عليهم الرحمة والرضوان واستعمالها في الشر سحر من النفوس الشقية، وثانيها: أمور غريبة تحدث من قوى سماوية وأجسام عنصرية مخصوصة بهيئات وأشكال وأوضاع تسمى الطلسمات، وثالثها: أمور غريبة تحدث من أجساد أرضية كجذب المغناطيس الحديد، وتسمى النيرنجات، وهذا هو القول الكلي في الأمور الغريبة، وسيأتي الكلام في جزئياتها إن شاء الله تعالى.

المقدمة الرابعة

في تقسيم الموجودات. كل موجود سوى الواحد سبحانه مخلوق، وكل ذرة من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها غرائب وعجائب يظهر فيها حكم الله تعالى وقدرته. وإحصاء ذلك غير ممكن، لكننا نشير إلى ذلك ونقول إجمالاً، فنقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا نعرف أصلها ولا يمكننا النظر فيها، فكم من موجود لا نعلمه كما قال الله تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾، وإلى ما نعرف جملها ولا نعرف تفصيلها، وهي منقسمة إلى ما لا يدرك بالبصر كالعرش والكرسي والملائكة والجن والشياطين، وغيرها، فمحال النظر فيها، ولا يمكن أن يقال فيها إلا ما صح بالنصوص والأخبار والآثار. وأما المدركات بالبصر كالسموات والأرض وما بينهما، والسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها ودورانها، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها وبحارها وأنهارها ومعادنها ونباتها وحيوانها وما بين السماء والأرض، وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعودها وبروقها وصواعقها وشهبها وعواصف أرياحها، فهذه هي أجناس المشاهدات من السموات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أصناف، وكل صنف ينقسم إلى أقسام، ولا نهاية لاستيعاب ذلك، وانقسامها في اختلاف صفاتها وهيئاتها ومعانيها الظاهرة والباطنة، وفي جميع ذلك مجال البصر، فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض إلا وفي تحريكها حكمة، أو حكمتان أو عشرة أو ألف، وكل ذلك دليل على وحدانيته وعظمته، كما قال بعضهم:

وفي كل تحريكه وتسكينه أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

المقالة الأولى في العلويات والنظر فيها في أمور:

النظر الأول: في حقيقة الأفلاك

وأشكالها وأوضاعها وحركتها بطريق الإجمال

ذهب الحكماء إلى أنّ الفلك جسم بسيط كروي مشتمل على الوسط متحرك عليه ليس بخفيف ولا ثقيل ولا بارد ولا حار ولا رطب ولا يابس ولا قابل للمخرق ولا للالتئام، ولهم على ذلك أدلة مذكورة في الكتب الحكمية؛ وكتابتنا هذا ليس بصددها.

والأفلاك كرات محيطة بعضها ببعض حتى حصلت من جملةتها كرة واحدة يقال لها العالم، وأدناها إلى العناصر فلك القمر، ثم فلك عطارد، ثم فلك الزهرة، ثم فلك الشمس، ثم فلك المريخ، ثم فلك المشتري، ثم فلك زحل، ثم فلك الثوابت، ثم فلك الأفلاك، وأعلم أن لكل فلك مكاناً لا ينتقل عنه، لكنه متحرك فيه بأجرامه لا يقف طرفه عين وسرعة حركاتها أسرع من كل شيء شاهده الإنسان حتى صحح في الهندسة أن الفرس في حالة الركض الشديد من الوقت الذي يرفع يديه إلى أن يضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف فرسخ. ثم إنّ الأفلاك منها ما يتحرك من المشرق إلى المغرب كالفلك الأعظم، ومنها ما يتحرك من المغرب إلى المشرق كفلك الثوابت وأفلاك السيارات، ومنها ما يتحرك بالنسبة إلينا دولابية، ومنها ما يتحرك حتمائية، ومنها رحوية، ومنها ما يشتمل على الوسط ولكن ليس مركزه مركز العالم كالأفلاك التسعة، ومنها ما يشتمل على الوسط، لكن مركزه مركز العالم كخارج المراكز، ومنها ما ليس مشتملاً على الوسط كأفلاك التداوير. وسيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن الأفلاك ما لم يعرف له إلا كوكب واحد كأفلاك السيارات، ومنها ما لم يعلم عدد كواكبها إلا الله تعالى كفلك الثوابت، ومنها ما ليس له كوكب أصلاً كالفلك الأعظم ويقال له الفلك الأطلس.

وجميع الحركات الموجودة في العالم بحسب ما عرف من آراء المتقدمين وأصحاب الأرصاد سيما بطليموس فإن اعتماد القوم على رصده خمسة وأربعون حركة للفلك الأعظم وحركة للفلك الثابت، وثمان عشرة لأفلاك الكواكب العلوية لكل واحد منها ست حركات، وحركتان للفلك الشمس، وست حركات للفلك الزهرة، وتسع حركات للفلك عطارد، وست حركات للفلك القمر، وحركتان لما دون فلك القمر، وهما حركتا الثقل والخفة، هذا ما بلغ إليه فهم العقلاء، وذهن الأذكياء، والله الموفق.

النظر الثاني في فلك القمر

وهو يحده سطحان كرويان متوازيان مركزهما مركز العالم، السطح الأعلى منهما لمقعر فلك عطارد، والأدنى لمحدب كرة النار، ويتم دورته في كل ثمانية وعشرين يوماً بحركته التي تختص به من المغرب إلى المشرق، وفلك تدويره يدور في الفلك الحاوي في كل أربعة عشر يوماً مرة، ففي الدورة الأولى يكون القمر بوجهه الممتلىء إلى مركز الأرض، ثم إن فلكه الكلي ينقسم إلى أربعة أفلاك: ثلاثة منها شاملة للأرض، وواحد صغير غير شامل، أما الشاملة فالأول منها يسمى فلك الجوزهر، وهو الذي يماس السطح الأعلى منه السطح الأدنى من فلك عطارد، والثاني منها يماس السطح الأعلى منه مقعر فلك الجوزهر، والثالث منها فلك خارج المركز في الفلك المائل من مركزه خارج عن مركز العالم، مائل إلى جنب من الفلك الكلي بحيث يماس مقعر سطحه الأعلى من الفلك الكلي على نقطة مشتركة بينهما، ويسمى الأوج، ويماس مقعر سطحه، السطح الأدنى من الفلك الكلي على نقطة مشتركة بينهما، ويسمى الحضيض، فيحصل سطحان مختلفا الثخن، أحدهما حاوٍ للفلك الخارج المركز، والآخر محوي فيه ورقة الحاوي مما يلي الأوج، وغلظه مما يلي الحضيض، ورقة المحوي وغلظه بالعكس، يقال لكل واحد منهما المتمم، وأما الفلك الصغير فهو في ثخن الفلك الخارج المركز يقال له فلك التدوير، والقمر مركز فيه يتحرك بحركته، وحركة هذا الفلك حركة مختصة مغايرة لحركة الفلك الكلي، وزعموا أن ثخن فلك القمر وهو بعد ما بين سطحه الأعلى وسطحه الأدنى مائة ألف وثمانية عشر ألفاً وستة وستون ميلاً، وبتليموس قد ذكر ثخن الأفلاك

ومقادير أجرام الكواكب، ودوائرها وأقطارها، ولا تستصعبن ذلك، فإنه لا يصعب إلا على من لا دراية له بعلم الهندسة، وأما من حل الثانية من أقليدس فيسهل عليه ذلك إن كان فطناً.

فصل

وأما القمر فهو كوكب مكانه الطبيعي الفلك الأسفل، من شأنه أن يقبل النور من الشمس على أشكال مختلفة، ولونه اللداني إلى السواد يبقى في كل برج ليلتين وثلث ليلة، ويقطع جميع الفلك في شهر، وهو أصغر الكواكب فلكاً، وأسرعها سيراً. وزعموا أن جرم القمر جزء من تسعة وثلثين جزءاً وربع جزء من جرم الأرض، ودورة القمر أربعمئة واثنتان وخمسون ميلاً بالتقريب، هذا ما وصل إليه آراء الحكماء بحكم المقدمات الحسابية.

فصل: في زيادة ضوئه ونقصانه

القمر جرم كثيف مظلم قابل للضياء إلا القليل منه على ما يرى في ظاهره، فالوجه الذي يواجه الشمس مضيء أبداً، فإذا كان قريباً من الشمس كان الوجه المظلم مواجهاً للأرض، وإذا بعد عن الشمس إلى المشرق ومال النصف المظلم من الجانب الذي يلي المغرب إلى الأرض تظهر من النصف المضيء قطعة هي الهلال، ثم يتزايد الانحراف وتزداد بتزايد القطعة من النصف المضيء حتى إذا كان في مقابلة الشمس ينقص الضياء من الجانب الذي بدأ بالضياء على الترتيب الأول حتى إذا صار في مقابلة الشمس كان النصف المواجه للشمس هو النصف المواجه لنا، فنراه بداراً، ثم يقرب من الشمس، فينقص الضياء من الجانب الذي بدأ بالضياء على الترتيب الأول حتى إذا صار في مقابلة الشمس ينمحق نوره، ويعود إلى الموضع الأول وينزل كل ليلة منزلاً من المنازل الثمانية والعشرين، ثم يستتر ليلة، فإن كان الشهر تسعة وعشرين استتر ليلة ثمانية وعشرين، وإن كان ثلاثين استتر ليلة تسعة وعشرين، ويقطع في استتاره منزلاً، ثم يتجاوز الشمس فيرى هلالاً، وذلك قوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾، يريد أنه ينزل كل ليلة منزلاً منها حتى يصير كأصل العذق إذا قدم ورق واستقوس.

فصل: في خسوفه

وسببه توسط الأرض بينه وبين الشمس، فإذا كان القمر في إحدى نقطتي الرأس والذنب أو قريباً منه عند الاستقبال تتوسط الأرض بينه وبين الشمس، فيقع في ظل الأرض، ويبقى على سواده الأصلي، فيرى منخسفاً، والشمس أعظم من الأرض، فيكون ظل الشمس مخروطاً قاعدته دائرة صفحة الأرض، لأن الخطوط الشعاعية التي تخرج من الشمس إلى جرم الأرض لا تكون متوازية، فإذا اتصلت بمحيط الأرض ونفذت في الجهة الأخرى تلاقياً عند نقطة فيحصل ظل الأرض على شكل المخروط، فإذا لم يكن للقمر عرض عن فلك البروج عند الاستقبال، وقع كله في جرم المخروط، فيخسف كله حينئذ، وإن كان له عرض يخسف بعضه، وربما يماس جرم القمر مخروط الظل، ولا يقع فيه شيء، وذلك إذا كان عرض القمر مساوياً لنصف مجموع القطرين، أعني قطر القمر وقطر الظل، وإذا كان أقل من نصف القطرين يخسف بعضه.

فصل: في خواص القمر وتأثيراته العجيبة

زعموا أن تأثيراته بواسطة الرطوبة كما أن تأثيرات الشمس بواسطة الحرارة، ويدل عليها اعتبار أهل التجارب؛ ومنها أمر البحار، فإن القمر إذا صار في أفق من آفاق البحر أخذ ماؤه في المد مقبلاً مع القمر، ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر في وسط سماء ذلك الموضع، فإذا صار هناك انتهى المد منتهاه، فإذا انحط القمر من وسط سمائه جزر الماء ولا يزال كذلك راجعاً إلى أن يبلغ القمر مغربه، فعند ذلك ينتهي الجزر منتهاه، فإذا زال القمر من مغرب ذلك الموضع ابتداء المد مرة ثانية إلا أنه أضعف من الأولى، ثم لا يزال كذلك إلى أن يصير القمر في وتد الأرض، فحينئذ ينتهي المد منتهاه في المرة الثانية في ذلك الموضع، ثم يبتدىء بالجزر والرجوع، ولا يزال كذلك حتى يبلغ القمر أفق مشرق ذلك الموضع، فيعود المد إلى ما كان عليه أولاً فيكون في كل يوم وليلة بمقدار مسير القمر فيهما في ذلك البحر مدان وجزران.

ومنها أمر أبدان الحيوانات، فإنها في وقت زيادة القمر وضوئه تكون أقوى،

والسخونة والرطوبة، والنمو عليها أغلب، وتكون الأخلاط في بدن الإنسان في ظاهره، والعروق تكون ممتلئة، وبعد الامتلاء تكون الأبدان أضعف والبرد عليها أغلب، والنمو أقل والأخلاط في غور البدن والعروق أقل امتلاءً، وذلك أمر ظاهر عند علماء الطب.

ومنها أنّ الأطباء ذهبوا إلى أنّ أحوال البحرانات وتقارب أيامها مبنية على زيادة ضوء القمر ونقصانه. وكتب الطب ناطقة بذلك؛ وزعموا أنّ الذين يمرضون في أول الشهر أبدانهم وقواهم على دفع المرض أقوى، والذين يمرضون في آخر الشهر بالضعف. ومنها أنّ شعور الحيوانات يسرع نباتها ما دام القمر زائد النور ويغلظ ويكبر، وإذا كان ناقص النور أبطأ نباته ولم يغلظ.

ومنها أنّ الحيوانات تكثر ألبانها من ابتداء زيادة نور القمر إلى الامتلاء، وتزداد أدمغتها وبياض البيض المنعقد في أول الشهر أكثر، وإذا نقص نور القمر نقصت غزارة الألبان، ومادة الأدمغة، وكثرة بياض البيض.

ومنها أنّ الإنسان إذا أكثر القعود أو النوم في ضوء القمر تولد في بدنه الكسل والاسترخاء ويهيج عليه الزكام والصداع، وإذا كانت لحوم الحيوانات بادية لضوء القمر تغيرت رائحتها وطعمها.

ومنها أنّ السمك يوجد في البحار والأنهار من أول الشهر إلى امتلاء أكثر ممّا يوجد من الامتلاء إلى آخر الشهر، ويكون أيضاً في النصف الأول من الشهر أسمن منه في النصف الأخير.

ومنها أنّ حشرات الأرض خروجها من أجحرتها في النصف الأول من الشهر أكثر من خروجها منه في النصف الأخير، وكل حيوان يلسع أو يعض فإنه في النصف الأول من الشهر أقوى فعلاً منه في النصف الأخير وسمه أشد تأثيراً.

ومنها أنّ السباع في النصف الأول أشد طلباً للصيد منها في النصف الأخير.

ومنها أنّ الأشجار إذا غرست والقمر زائد النور علقّت وأسرعت النشو والحمل، وإن وقع اللقاح والحمل والقمر زائد النور كانا جيدين، وإن وقع والقمر ناقص النور أو زائلاً من وسط السماء لم يسرع النبات وأبطأت في الحمل، وربما يبست.

ومنها أن الفواكه والرياحين والزرع والبقول والأعشاب زيادتها من وقت زيادة القمر إلى الامتلاء أكثر من زيادتها ونموها من الامتلاء إلى المحاق، وهذا أمر ظاهر عند أرباب الفلاحة حتى عند عامتهم فضلاً عن علمائهم، فإنهم يجدون تأثير ذلك ظاهراً سيما في البقول والخوخ والبطيخ والسوسم والقثاء والخيار والقرع من أول الشهر إلى نصفه يزيد أكثر مما يزيد من نصف الشهر إلى آخره.

ومنها أن الفواكه إذا وقع عليها ضوء القمر أعطاها لوناً عجيباً من حمرة أو صفرة، فالتى يقع عليها الضوء في النصف الأول من الشهر أحسن لوناً مما يقع عليها في النصف الأخير.

ومنها أن نبات القصب والكتان إذا وقع عليها ضوء القمر في النصف الأول أشد تقطعاً مما وقع عليها آخر الشهر.

ومنها أن المعادن التي تتكون يكون جوهرها وشفافها أشد إذا كان تولدها من أول الشهر ولو كان في آخره لا يكون كذلك.

خاتمة

في المجرة: وهو البياض الذي يرى في السماء يقال لها شرح السماء إلى زماننا هذا لم يسمع في حقيقتها قول شافى، زعموا أنها كواكب صغار متقاربة بعضها من بعض، والعرب تسميها أم النجوم لاجتماع النجوم فيها، وزعموا أن النجوم تقاربت من المجرة فطمس بعضها بعضاً، فصارت كأنها سحاب وهي ترى في الشتاء أول الليل في ناحية من السماء، وفي الصيف أول الليل في وسط السماء ممتداً من الشمال إلى الجنوب، وبالنسبة إلينا تدور دوراً رحوياً فنراها نصف الليل ممتدة من المشرق إلى المغرب، وفي آخر الليل من الجنوب إلى الشمال، فما كان منها شمالياً يكون جنوبياً، وما كان جنوبياً يكون شمالياً، والله أعلم بحقيقتها، وتكون على فلك يختص بها يدور بالنسبة إلينا رحوياً أو على شيء من الأفلاك المذكورة.